شعر مواكب الحج في العصر العثماني

د. نجوى بهجت قصاص

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب

الملخص:

المسلمون جميعهم في مشارق الأرض ومغاربها تنبض قلوبهم بحب البقاع المقدسة، فيتشوقون إليها، وتهفو نفوسهم إلى زيارتها لأداء فريضة الحج أو العمرة.

وتعد مواكب الحج في العصر العثماني واحدة من أهم المظاهر التي تعكس الجانب التنظيمي والديني والاجتماعي للحج.

كانت هذه المواكب تضم مجموعات كبيرة من الحجاج الذين يسيرون بإشراف السلطات العثمانية، وكانت مجهزة بشكل جيد لضمان سلامتهم وراحتهم في أثناء الرحلة.

إنها ليست وسيلة للسفر إلى الأماكن المقدسة فحسب، بل هي تمثيل للثقافة الإسلامية والعلاقات الاجتماعية في ذلك العصر.

ارتبط هذا النوع من الشعر بالمواكب التي كانت تسير من مختلف المدن الإسلامية إلى مكة المكرمة، وكانت مناسَبة لتجسيد المشاعر الدينية والروحانية التي يشعر بها الحجاج في أثناء توجههم إلى البيت الحرام؛ فيصف الشاعر الطريق والصعوبات التي واجهها الحجاج، والمحطات التي مرّوا بها إضافة إلى جمال الأماكن المقدسة وشرف الوصول إليها.

إن شعر مواكب الحج وسيلة لنقل صورة حية عن رحلة الحجاج، وغالبًا ما كان يُزين بأساليب بلاغية تعكس الإبداع الفني للشعراء في تلك الحقبة.

الكلمات المفتاحيّة:

الشعر العربي – مواكب الحج – العصر العثماني.

Hajj Procession Poetry in the Ottoman Era

Dr. Najwa Bahjat Qassas

Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Idlib University

Abstract:

Muslims throughout the world, from the East to the West, throb with love for the holy sites. They yearn to visit them and long to perform the Hajj.

The Hajj processions in the Ottoman era are one of the most important phenomena reflecting the organizational, religious, and social aspects of Hajj.

These processions included large groups of pilgrims, marching under the supervision of the Ottoman authorities. They were well-equipped to ensure the pilgrims' safety and comfort during the journey.

This was not only a means of traveling to the holy sites; they also represented Islamic culture and social relations of the era.

This type of poetry was associated with the processions that traveled from various Islamic cities to Mecca, and was an opportunity to embody the religious and spiritual feelings felt by pilgrims on their way to the Sacred House.

The poet describes the road, the difficulties faced by the pilgrims, the stations they passed through, as well as the beauty of the holy sites and the honor of reaching them.

Hajj processional poetry is a means of conveying a vivid image of the pilgrims' journey, often embellished with rhetorical devices that reflect the artistic creativity of poets of that era.

Keywords:

Poetry _ Hajj procession _ Ottoman era

المقدمة:

سرى اعتقاد راسخ بين الباحثين أن الأدب العربي في العصر العثماني لا يستحق الدرس والبحث، وأنه يخلو مما يصلح أن يطلق عليه اسم الأدب، وتبع هذا الحكم أحكام أخرى خاطئة متجاهلة أنّ لكل عصر أساليبه، ولكل بيئة ألفاظَها وتعابيرها وموضوعاتها.

إن ابتعاد أدب هذا العصر عن البلاط قابله امتداد فكري جديد في الشعر والنثر يتمثل في الاتجاهات الذاتية والاجتماعية والإنسانية، والتزم النظم في أغراض جديدة وفنون مستحدثة يرفدها معين من الذاتية، فتاريخ الأدب العربيّ في العصر العثمانيّ لايزال بحاجة إلى إلقاء مزيد من الأضواء وإلى دراسات علميّة نزيهة تبتعد عن الأحكام الجاهزة والمقررة سلفاً، وإلى مزيد من الأبحاث لجلاء كثير من غوامضه، فهو جزءٌ من التّاريخ الأدبيّ لأمتنا شاء من شاء وأبى من أبى.

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز أثر الحياة الاجتماعية، والثقافية، والتنظيمات التي أحاطت برحلة الحج في الشعر العثماني، فهذا الشعر يحمل مجموعة من الملامح التي تعكس طبيعتها الدينية والروحانية والاجتماعية؛ إذ كان يحتفي بالروابط الإسلامية والأخوّة الدينية التي تتجسد في تجمع الحجّاج من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ويهدف إلى إظهار القيمة الفنية لهذا الشعر، وبالتالي الإسهام في تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة عن العصر العثماني وأدبه.

منهج البحث:

يعتمد البحث في أغلبه على المنهج الوصفي التحليلي، والدراسة نصية تحليلية، لا تقيد نفسها بمنهج محدد، وإنما تستعين بأدوات من مناهج الدرس الأدبي المتنوعة.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسة خاصة بالحديث عن شعر مواكب الحج في العصر العثماني، وهناك بعض الدراسات عن الحنين إلى الأماكن المقدسة في عصور أخرى.

الصعوبات:

تتمثل الصعوبات في قلة الدراسات عن الشعر العثماني عمومًا، وعن شعر مواكب الحج خصوصًا، إضافة إلى صعوبة العودة إلى المصادر العثمانية التي ما يزال معظمها مخطوطًا.

أولًا– التمهيد: مواكب الحج في العصر العثماني:

كانت قافلة الحج الشامي في الدولة العثمانية واحدة من أشهر القوافل إلى جانب

قافلة الحج المصري واليمني والمغربي، ولم تكن هذه التقسيمات الجغرافية ضيقة المعنى؛ إذ التحق بهذه الجماعات حجاج من خارج مناطقهم، فكان الحج العجمي يأتي إلى دمشق إما عبر حلب أو مباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة للإفادة من الحماية المتوفرة لها.

ولقوافل الحج العثمانيّة أهمية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية، وكانت لقافلة الحج الشاميّ أهمية خاصة في الدولة العثمانية لأن السلطان العثماني ومنذ فتحه حلب في عام ١٥١٦هـ اتخذ لقب خادم الحرمين الشريفين، واقتضى ذلك تأمين سلامة الحجاج لزيارة الحرمين الشريفين، كما أن انتقال العلماء والمفكرين وكذلك التجار ورؤوس الأموال من دمشق وإليها إبان فترة الحج له آثاره الواضحة محليًا وفي الدولة العثمانية عمومًا، وكان يؤم دمشق في موسم الحج عدد من القوافل أبرزها الحج الرومي، والحج الحلبي، والحج العجمي.

كانت الأهمية التي أولاها العثمانيون للحجاز نابعة من إحساسهم بالمسؤولية تجاه البقعة الطاهرة في هذه المنطقة(1).

وكان اهتمام السلاطين العثمانيين بأمن الحج في الحجاز من أولى اهتماماتهم؛ إذ كانت بعض القبائل العربية تشكل مصدر خطر على حجاج بيت الله الحرام في القيام بأعمال السلب والقتل لمن في قافلة الحج؛ فقام السلاطين بعمل بعض الإجراءات لسلامة الحج وأمنه، ومنها أن الدولة العثمانية أقامت عددًا من القلاع والحصون على طول طريق الحج للحماية والمراقبة والتخفيف من خطر القبائل التي كانت تتربص بقوافل الحج أو القوافل التجارية، وحرصت الدولة العثمانية على استرضاء القبائل وكسبها والاستفادة من خدماتها في أثناء موسم الحج بأن خصصت أموالًا إضافية لتوزيعها على زعماء القبائل لتأمين قافلة الحج، لأن خطر القبائل كان يشكل هاجساً أمنياً على سلامة الحج وأمنه، وفي أغلب الأحيان اتسمت العلاقة بين الطرفين بالمد والجزر ولم يكن اهتمام السلاطين منحصراً بأمن الحجاز فحسب، بل اهتموا اهتماماً كبيراً بالناحية العلمية والتعليمية لمنطقة الحجاز؛ فكانت أعداد كبيرة من العلماء تقصد المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة كل عام، ويكون موسم الحج مكاناً للقاء هؤلاء العلماء من أقطار العالم الإسلامي كافة، فيتدارسون فيما بينهم، وقد يطيب لبعضهم البقاء والمجاورة[2].

وينقل لنا الرافعي الأندلسي التطواني في رحلته التي تحمل عنوان " المعارج المرقيّة في الرحلة المشرقيّة" صورة عن الأركاب التي شاهدها وهي الركب الشامي والمصري والبغدادي والبصري[3].

موضوعات شعر الحج:

إن هذا الشعر يصف رحلة العمر التي تذكر بالرحيل إلى الدار الآخرة، فهي الرحلة إلى البلد العتيق مهوى أفئدة المسلمين الذي يقصده الحجيج {مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [4].

تنوعت موضوعات شعر مواكب الحج في العصر العثماني، وكان من أبرزها:

1 – العزم والاستئذان للحج:

قد يطلب الشاعر الإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم على نية التيسير والقبول كما نرى عند الشيخ حسن أفندي بن سليم الدجاني الذي "اجتمع به البيطار عام توجهه إلى الرحاب القدسية، لزيارة الأماكن العلية، فقطعا مدة إقامتهما في يافا في مذاكرات علمية، ومطارحات أدبية، وفي منتصف شوال سنة ألف ومئتين وأربع وسبعين توجه مع أخيه المرحوم العلامة الشيخ حسين الدجاني مفتي يافا إلى الحجاز وقبل توجههما نظم أخوه قصيدة يطلب فيها الإذن من حضرة النبي صلى الله عليه وسلم بالحج " وأولها[5]:

يـا طـائرَ البـانِ خـذْ منّـي مراسـلةً لروضـةٍ قـدْ حواهـا أشـرفُ الرسـلِ

وقد شطّرها حسن أفندي وذيّلها بقوله:

يـا كعبـةَ الجـودِ يـا شـمس الوجـود ويـا بــدرَ الشُّــهودِ علــى عليــاكَ متّكَلِــي
بــاللهِ خــذْ بيــدي عَطفــاً ومُــنَّ علــى عبــدٍ مشــوقٍ قليــلِ الحَــولِ والحِيَــلِ
أرجــو الوصــالَ فقــدْ طــالَ المــدى ولقــدْ قــلَّ اصــطباري ووجــدي غيــرُ منفصــلِ
لنــاظمِ الأصــلِ مفتــي العصــرِ جُــدْ وعلــى أخيــهِ وهــو أبــو الإقبــالِ يــا أملــي

أو يطلب الإذن من ولي نعمته كما فعل عبد علي بن ناصر بن رحمة الحويزي من قصيدة يمدح بها الأمير علي بن أفراسياب، ويستأذنه في الحج[6]:

نِلْــتُ مــن جُــودِك العَمِــيم نَــوالاً وجبَــتْ فيــه حجَّتِــى وزَكــاتِى
عــرفَ النــاسُ فــي حِمــاكَ وُقُــوفِي فــأجِزْني الوقــوفَ فــي عَرَفــاتِ
لــم أُفــارِقْ حِمَــى العَلــيِّ لِبيْــتٍ غيــرِ بيــتِ العَلِــيِّ ذِي الــدَّرجاتِ
وابْــقَ واســلَمْ علــى الرَّجــاءِ مَلِيكــاً طَــوْعُ مــا تشْــتهي الزمــانُ المُــواتِي

وتبرز رغبة الشاعر أبي معتوق الموسوي بالحج في المدحة التي خص بها ممدوحه الأثير عنده علي خان، ويستأذنه فيها للحج الشريف سنة ١٠٦٣ هـ، ومما قاله فيها بعد ثمانية وعشرين بيتاً من النسيب والغزل مخاطباً إياه[7]:

أمــولايَ يــا مــولايَ دعـوة مخلـصٍ حليـــفِ ولًا فـــي ودِّه لا يُجَمجِـــمُ
لقـد أوجبـتْ نُعمـاكَ حجـاً وعمـرةً علــى ذمّتــي والحــجُّ فـرضٌ محــتَّمُ
فهــلْ إذنُ لـــي أقضـــي حقـــوقَ تشـــاركُني فيهـــا الثـــوابَ وتغـــنمُ

أبرز ما يلاحظ هنا إيمان الشاعر القوي وعزمه على الحج لأنه فرض عليه، ولم يكتف بالحج، وإنما أعرب عن رغبته في المجاورة قرب الكعبة، وأداء العمرة.

2 – توديع ركب الحجيج

كان موقف توديع الحجاج وتشييع مواكبهم من أكثر المواقف إثارة للأشواق، وتأجيجًا لمشاعر الحنين التي لا يستطيع الشعراء كبتها أو التغلب عليها إلا بإخراجها في تلك القصائد والمقطوعات التي تفيض صدقًا وإخلاصًا.

ومن ذلك قول العمادي الحنفي الدمشقي[8] مخاطبًا ركب الحجيج[9]:

ركــبُ النجائــبِ حــينَ أمَّ رحابَهــا صـــحبَ الفـــؤادَ وقـــادَهُ مُتشـــوّقا
يــا مَـنْ سـعى بالقلـبِ ثـمَّ رمـى بـهِ جمـــرَ التفـــرُّقِ مُحْرِمـــاً عينـــيْ الّلقـــا
وقَضَـى بخِيـفِ مِنـى نهايـاتِ المُنـى هـــــلّا ذكـــــرتَ متيّمـــــاً مُتَحرّقـــــا
إنْ كـــانَ يومـــاً بالـــدِّيارِ مُخَلَّفـــاً فالقلـــبُ منـــهُ حيـــثُ أنـــتمْ أُوثِقـــا
أو كـــانَ قيَّـــده القضـــاءُ بجســـمهِ فالشـــوقُ قـــدْ وافـــى لنحـــوِكَ مُطلقـــا
فاشـفعْ لعبـدِكَ كـي يـزورَكَ سـيّدي ويـــرى ضـــريحاً بالرســـالةِ مُشْـــرِقا

إنه يعبر عن حاله وحال أمثاله من الذين تخلفوا، فيحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق، ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن.

ومثله قول الشيخ تاج العارفين بن محمد بن أمين الدين في وداع الركب[10]:

أذَكـــرْتَ ربعـــاً مـــن أميمـــةَ أقفـــرا فأســـلتَ دمعـــاً ذا شُـــعاعٍ أحمـــرا
أم شـــاقكَ الغـــادون عنـــكَ سُـــحَيرَةً لمَّـــا ســـرَوا وتيمّمـــوا أمَّ القُـــرى
رحلـوا ومـا عـاجوا علـى مضـناهمُ واهًـــا لحظّـــي كيـــف كنـــتُ مـــؤخَّرا

ويُظهر الشعراء سبب تعلّقهم بتلك الأرض، فالشاعر يهواها لأنّها تمثِّل رمز التعلّق بالنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، وهذا ما يجعلنا نشبّه هذا الغزل بالغزل العذري العفيف. ومثله قوله[11]:

وكلّما سارَ ركبٌ لمْ نسِرْ معهُ أجرى الدموعَ دماءً مِنْ مآقينا
ساروا فراحَ فؤادي سائراً معهمْ يقفو الركائبَ في إثْرِ المُحِبّينا
جسمي بمصرَ وقلبي بالحجازِ يُرى من صدق حبٍّ ووِدٍّ حُكِّما فينا

فهو حينما ودع الوفد ودع معه روحه التي رحلت مع الحجاج وتركت جسمه يحترق على نار الشوق إلى تلك البقاع التي لم يسعد برؤيتها

وهذا المعنى نراه يتكرر عند الشعراء كثيرًا ومنهم الشاعر عبد الغني النابلسي في قوله[12]:

سارَ الحجيجُ فثارَ الشوقُ والوَهَجُ حيثُ المحاملُ بالركبان تختلجُ
والدمعُ مِنْ مُقلتي سحَّتْ سحائبُهُ ولِيْ لسانٌ بجيرانِ الحِمَى لَهِجُ

وفي موضع آخر يكرر المعنى نفسه قائلاً[13]ا:

باللهِ يا سَائِقَ الأَظعَانِ إنْ بَلَغَتْ بِكَ النِّياقُ حمى طَهَ وَمَثْوَاهُ
وإن شعرتَ به يُصغي بلا ملَلٍ لقصّتي فابسطِ الشَّكوى وقُلْ: يَا هُو
تركتُ عبدًا ضعيفًا في دمشقَ بما شَاءَ النَّوى فيهِ قدْ أبدى بلايَاهُ

ولا يخفى ما في هذه القطعة من أشواق عبر عنها الشاعر بأساليب متنوعة منها القسم والأمر.

3- الشوق والحنين إلى الأماكن المقدسة:

كانت أرواح الشعراء معلّقةً بأطياف مكّة والمدينة، وقباب الروضة النبويّة تلوّح لهم مضرمةً نار شوقهم وحنينهم إلى الحبيب المصطفى؛ فهذا الشاعر عارف عبد الباقي يتلهّف إلى أرض الحجاز قائلًا[14]:

أحِـنُّ ادّكـاراً نحـوَ مُنْعَـرَج اللِّـوَى وأصْـبُو إلـى سـفْحِ النَّقَـا فالأنـاعمِ
فيَسِّـرْ إلهـي أنْ أعفِّـرَ جبهتـي بسـاحاتِ هاتِيـكَ الرُّبَـى والمَعـالمِ
وذلـك أزْكـى مَرْبـعٍ صـارَ مَنْشَـأً لفخـرِ البرايـا خيـرِ أولادِ آدمِ

وقد يشتد الشوق ببعضهم ويعجزون عن زيارة البقاع المقدسة بأجسادهم فيستعيضون عن الزيارة بتلك الرسائل التي يكتبونها لتنوب عنهم في تأدية التحية، ومن خلالها يعبرون عن عجزهم ويرجون قبول عذرهم.

وللسيد محمد أمين بن عابدين الدمشقي قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قد" أرسلها ضمن مكتوب للحضرة الشريفة النبوية بصحبة ركب الحاج الشريف سنة عشرين ومئتين وألف لكي تُقرأ أمام الحضرة الشريفة المحمدية، وهي[15]:

لبيـكِ يـا قُمْرِيَّـةِ الأغصـانِ فلقـدْ صـدَعْتِ القلـبَ بالألحـانِ
يـا صـاحبيَّ ألـيسَ يُعـذرُ بالبكـا صَـبٌّ كئيـبٌ نـازحُ الأوطـانِ
إيْ والـذي هـو عـالمٌ بضـمائري لَيحِـقُّ لـي أبكـي مـدى الأزمـانِ
فلقدْ مضـى عُمْـري القصيرُ ولـم أفزْ بزيـارتي أرضَ اللِّـوى والبـانِ
بـاللهِ هـل تريـانِ أُسـعدُ لحظـةً وأخـوضُ رمـلَ أولئـكَ القيعـانِ
وأشـمُ نفـحَ الطيـبِ مِـنْ أرضِ الحبيـ ـبِ وترجـعُ الأرواحُ للأبـدانِ
أرضٌ مِـنَ المسـكِ العبيـرِ تكوَّنـتْ والنـورُ جلَّلهـا كمـا الهيمـانِ"

تبدو الحالة النفسية الكئيبة للشاعر من القلق والتوتر نتيجة الشوق وعدم اللقاء، وتوجهه إلى صاحبيه بالسؤال، وهي عادة درج عليها الشعراء القدامى عندما وقفوا على الأطلال والديار الخاوية.

ونرى أن الأماكن فقدت أبعادها الجغرافية وطبيعتها الترابية لشدة الأشواق فجعلت تربته مسكًا وحصاه درًا، والقاسم المشترك بين معظم الذين لم يتمكنوا من زيارة البقاع المقدّسة هو أنّهم يردّون السبب إلى كثرة ما ارتكبوه من ذنوب أثقلت أجسامهم وأفقدتها الخفّة اللازمة للقيام بهذه الرحلة المقدسة، كما يشتركون رغم توهج أشواقهم في نوع من الأمل المغلف باليأس، فتسافر قلوبهم وترحل أرواحهم مع الراحلين، ولا يبقى لهم إلا تلك الأجساد المحطّمة

التي حالت الظروف بينها وبين الرحيل مع تلك المواكب المحظوظة، واستعمل الشاعر أدوات الاستفهام للتعبير عن أمانيه التي لا يُرجى من ورائها شيء كثير، ومثل هذا نراه بوضوح عند ابن العماد في قوله[16]:

وا حسرتا فـازَ غيـري بالوصـالِ إلـى أرضِ الحبيــبِ ودونــي سُــدَّتِ السُــبُلُ

ولا يخفى ما في عبارة "سدت السل" من قرب من اليأس وبعد عن الأمل.

4 – وصف المطايا:

إن المطايا التي تحمل الحجّاج إلى البقاع المقدسة تتحول عن طبيعتها الحيوانية لتكتسب أبعادًا روحية، وقيمًا نفسية، ومشاعر عاطفية بعد أن يفيض عليها الشعراء من أحاسيسهم ومشاعرهم، فها هو ذا الشاعر عبد الباقي بن محمد الشهير بعارف يطلب من الحادي أن يترفق به وبالرواحل التي تحملهم، فيتشارك معها في الشعور قائلًا[17]:

ألا أيّهــا الحــادِي ترفَّــقْ بمُهْجتِــي وبـــاليَعْمُلاتِ الـــدَّامِياتِ المَناسِـــمِ
وهــاج غرامِــي نحــوَ مكَّــةَ حيثُمــا تُشَــدُّ حِــزامُ المُرسَــلاتِ الرَّواســمِ

ويصف السيد محمد أمين بن عابدين الدمشقي المطيّ بعد التشوق إلى الديار المقدسة قائلًا[18]:

وأزمُّ مــعْ حــادي المطــيّ قلائصــاً أشــواقُها تغنــي عــنِ الأرســانِ
ســكرتْ بترنــامِ الحُــدَاةِ فمــا درتْ كــمْ مَهْمَــهٍ قطعــتْ مِــنَ الوجــدانِ
عَنَقَــاً فســيحاً ســيرُها مِــنْ وجــدِها وتحِــنُّ باكيــةً بــدمعٍ قــانِ
وتكــادُ تســتبقُ الهــوادي أرجــلٌ منهــا تســيرُ بســيرةِ العَجْــلانِ
لــم تعــرفِ الإدلاجَ والتَّعــريسَ مــذْ كانــتْ تــئِنُّ بأنَّــةِ اللهفــانِ
حتَّــى طــوتْ أرضَ الحجــازِ وشــاهدتْ أنــوارَ طيبــةَ مــوردَ الظَّمــآنِ
وأتــتْ إلــى أرضِ السُّــفوحِ ترومُهــا وتطيَّبــتْ بــالرُّوحِ والرَّيْحــانِ

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من امتزاج بين الشاعر وموضوعه فيما تحمله تلك النجب من أشواق وحنين إلى أرض الحجاز، وهو ما جعلها تستغني عمن يقودها أو يدفعها.

هي لا تقنع بنقل راكبها إلى البقاع المقدسة وإنما تتقمص أحاسيسه ومشاعره لتصبح مثله في حنينها إلى تلك البقاع، وهذا ما يهون عليها أتعاب الرحلة، بل يحول تعبها إلى مرح وطرب يدفعانها إلى الإسراع، ويَهديانها في القفار، ومرحها وطربها هنا لا يعدوان كونهما امتدادًا لمرح الشاعر نفسه، ثم ينتقل لمخاطبتها مغبِطًا إياها لأنها ترحل إلى البقاع المقدسة في كل عام، وهذا ما لا يستطيعه، ولكنه يواسي نفسه بمديح الرسول عليه السلام[19]:

يـا نُـوقُ سـبحانَ الَّـذي أَذْنـاكِ مِـنْ أَرْضِ الحبيـبِ وجَـلَّ مَـن أَقْصـاني
فـي كـلِّ عـامٍ تُبْلِغـينَ مَقاصِـدًا وتُشـاهِدينَ مَنـازِلَ القُـرآنِ
والحَـظُّ يَقعُـدُني وسُـوءُ الفعـلِ يَـرْ مينـي بأَشْـراكِ الزمـانِ الجـاني
مـا لـي مـنَ الأهـوالِ حُسْـنُ تَخَلُّـصٍ إلّا بِمَـدْحي المُصـطفى العَـدْنانِ

وكذلك يصف النابلسي سرعتها وكأنها تدرك أنها سائرة نحو الحجاز فتطوي البيد طيّاً بقوله[20]:

هـيَ النُّـوقُ لكـنْ مِـنْ أَزِمَّتِهـا العَـدُوُّ وَمـا زادَهـا إلّا التَّشَـوُّقُ والشَّـجْوُ
سَـرَتْ بـينَ أَعْشـابِ القِفـارِ كأنَّهـا مِـنَ الوَجْـدِ سَـكْرى مـا أَلَـمَّ بهـا صَـحْوُ
لهـا البِيـدُ كالقِرطـاسِ تَحْـتَ خَفافِهـا فَتَكْتُـبُ خَطّـاً بالرِّيـاحِ لـهُ مَحْـوُ
وإِدْلاجُهـا أَوْدى وتَعْريسُـها بهـا لهَـا إنْ بَـدَا بَـرْقٌ إلـى ضَـوْئِهِ عَشْـو

نلحظ الاندماج بين الذات والموضوع؛ فليس حنين الناقة وفرحها إلا تعبيرًا عن شعور الشاعر نفسه.

والخفاجي يعظمها ويقدسها لأنها نالت شرف الوصول إلى أشرف الخلق فيقول[21]:

فـإذا المطـيُّ بنـا بلغـنَ محمـدًا فظهـورُهن علـى الرجـالِ حـرامُ
قربتنَـا مِـن خَيْـرِ مَـنْ وَطِـئَ الثَّـرَى فلهـا علينـا حُرمـة وذِمـامُ

وهكذا، تتجاوز الرواحل في وجدان الشعراء كونها مجرد وسيلة سفر لتغدو كائنات شاعرة تشاركهم الشوق والحنين، ويغدو سيرها نحو الحجاز رمزًا لعاطفة إنسانية متدفقة تسكنها القداسة ويغذيها الحب.

5- وصف منازل الحج وطريقه:

وصف الشعراء في طريق الحج بعض الأماكن التي مروا بها، كما في قول فتح الله بن بدر الدين محمود البيلونيّ الحلبيّ في بعض منازِل الحج، المسمّى بأكْرَه[22]:

تعفَّفْتُ عن زَادِ الرَّفيقِ ومائِهِ وسِرْتُ لبيْتِ اللهِ أُهْدِي لـه شُكْرَهْ
ووَفَّرتُ ما عندي احتِرازاً وإنَّني لَصَوْنَيَ ماءِ الوجْهِ لم أرَ ما أكْرَهْ

وللقطب المكيّ في مدح مكان يسمى الوجه في طريق الحجّ المصري[23]:

أقولُ ووادي الوجهِ سال من الحيا وقد طابَ فيهِ للحجيجِ مُقَامُ
على ذلك الوجهِ المليحِ تحيَّةٌ مباركةٌ مِن ربّنا وسلامُ

ووصفوا كذلك بعض العقبات التي واجهت الركب في طريقه، فلما أُحصر الركب اليماني في سنة ثلاث وثمانين بعد الألف كتب إبراهيم بن صالح المهتدي[24]إلى الإمام إسماعيل قصيدة يحثّه فيها على الجهاد[25]:

أظُلْماً عن البيتِ الحرامِ تُذادُ على مِثْلها الخيلُ الجِيادُ تُقادُ
وخَسْفاً يُسامُ الهاشِمِيُّونَ إنها لَفَادِحةٌ فيها الحتوفُ تُقادُ
إذا لم يُصَنْ مجدُ الخلافةِ منكمُ فمِن أينَ مجدٌ طارِفٌ وتِلادُ
ألستمُ بأهلِ البيتِ والرُّكْنِ والصَّفَا بلَى وهيَ أوطانٌ لكم وبِلادُ

يُـذادُ عـن البيـتِ الحـرامِ حَجِـيجُكمْ كمـا ذِيـدَ عـن ذِئْـبِ الفَـلاةِ نِقَـادُ
قليـلٌ بـأن تُشْـرَى مِنـىً بِمَنِيَّـةٍ لَيـالِي لِقـاً تزْهُـو بِهِـنَّ سُـعادُ
وتَجْريـعُ كـأسِ المـوتِ إن نَـدَّ زَمْـزَمٌ وأعْـوزَتِ الـوُرَّادَ منـه ثِمـادُ
فسَـيِّرْ أميـرَ المـؤمنين جَحـافلاً لهُـنَّ مـن السُّـحْبِ الثِّقـالِ مُـرادُ
أتُقْصَـى عـن البيـتِ الحـرامِ رِكابُنـا ويُهْـدَمُ مِـن آلِ النَّبـيّ عِمـادُ

وقد عارضها الأديب أحمد بن أبي القاسم الحلي، وردّ عليها في قصيدة على البحر والروي نفسيهما، ومنها قوله[26]:

دَعَـوْتَ ولكـنْ مَـنْ دعـوتَ جَمـادُ ونَبَّهْـتَ لكـنْ مَـنْ دَهـاهُ رُقـادُ
وحرَّضْـتَ أصْـناماً ظننْـتَ شُخوصَـها جُسـوماً ولكـنْ مـا لَهُـنَّ فُـؤادُ
أَلَـيس قُصـاراهم إذا قامـتِ الـوغَى ودارتْ رحَـى الهَيْجـا فَنـاً وشِـرادُ

وفي طريق الحج الشاق أدرك الموت بعض الحجاج فرثاهم الشعراء، ومنهم يوسف النابلسي[27] الذي ارتحل إلى الحجاز بصحبة أخيه الشاعر الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الكبرى، ورثاه أخوه بقصيدة طويلة منها قوله[28]:

بكيـتُ علـى مُفارقـةِ الشـقيقِ بـدمعٍ أحمـرٍ مثـلِ الشـقيقِ
أخٌ قـد كـانَ بـي بـرّاً شـفيقاً فـوا أسـفي علـى البـرّ الشـفيقِ

اختار الشاعر ألفاظًا مؤثرة مثل "بكيت، الشقيق، البرّ، الشفيق"، وزاد توظيف التشبيه "بدمع أحمر مثل الشقيق "من وقع الحزن، فبدت الدموع كأنها دم ينزف من قلب موجوع ما يعكس صدق العاطفة وحرارة اللوعة.

وممن مات في طريق الحج أحمد أفندي الحسيبي[29](ت:1293) في طريق ذهابه إلى الحجاز عند المدائن ودفن عند القلعة وقبره ظاهر مشهور، وقد كتب على قبره ما نظمه له عبد المجيد أفندي الخاني[30]:

أيـــا ركـــبَ الحجـــازِ إذا نـــزلتُم ... علـــى مـــاءِ المـــدائنِ للـــورودِ
قفـــوا عنـــدَ الطلـــولِ بنـــا قلـــيلاً ... نحيّـــيّ أهـــلَ هاتيـــكَ العهـــودِ
هنالـــكَ أحمـــدُ الشـــهمُ الحســـيبي ... ســـليلُ المصـــطفى فخـــرُ الوجـــودِ
أهـــلَّ ملبيـــاً بـــالحجِّ لكـــنْ ... أتتـــهُ دعـــوةُ الـــرَّبِ الـــودودِ
فقـــالَ لـــهُ البشـــيرُ اليـــومَ أرّخْ: ... لعَمْـــرُكَ قـــد كُتبـــتَ مـــع الوفـــودِ

عبّر الشاعر عن أسى الفقد بروح مؤمنة، فصوّر وفاته على أنه تلبية لنداء رباني من دون تفجع مما أضفى على الرثاء سموًا وإجلالًا.

6 – في ذكر مناسك الحج ومشاعره:

سجل الشعراء تفاصيل رحلة الحج من لحظة وداع الموكب إلى لحظة الوصول ورؤية مكة وأداء المناسك إلى لحظة وداع المشاعر المقدسة، فها هو ذا النابلسي يورد أخبار رحلته من أولها حين عقد العزم على الحج قائلا:

"ثم لما عزمنا على المسير، وحصل لنا تيسير ذلك الأمر العسير؛ أنشأنا هذه الأبيات، تشرفاً في استقبال بركات هاتيك الجهات حيث قلنا:

خُـــذاني نَحْـــوَ رَبّـــاتِ القِيـــانِ ... إلـــــى دارِ الأحبّـــــةِ والقِيـــــانِ
خُـــذاني نَحْـــوَ زَمْـــزَمَ والمُصَـــلّى ... ونـــورِ جَوانِـــبِ السُّـــوحِ الحِســـانِ
خُـــذاني يـــا خَليلَـــيَّ اعْتِنـــاءً ... بِشَـــأني واتْرُكـــا أَقـــوالَ شـــاني
إلـــى أَرْضِ الحبيـــبِ حبيـــبِ ... وعُوجـــا بـــي علـــى الـــرُّكْنِ اليَمـــاني"[31]

إن قصائد النابلسي مثقلة بالنظرات الصوفية ومليئة بمصطلحاتها، ولكنها تبقى واضحة يفهمها المتلقي ويتفاعل معها، ونلحظ التكرار الذي يؤكد شوق الشاعر وإلحاحه في الطلب.

وهذا المقّري الحفيد[32] قام باستئذان العاهل المغربي للقيام بمناسك الحج عام ١٠٢٨هـ قائلاً: "وهكذا شمرت عن ساعد العزم بعد المقام بمصر مدة قليلة، إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر الذي هو سر المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين

والعلمين المنيفين ... فحين حصل القرب، واكتحلت العين بإثمد تلك التربة ترنمت بقول من قال محرضاً على الوخد والإرقال[33]:

يـا مكـةَ اللهِ قـد مكّنـتِ لـي حرمـاً مؤمَّنـاً لسـتُ أشـكو فيـه مِـنْ داءِ
فمُـذْ رأى النـازحُ المسـكينُ مسـكنَه فـي قُطْـرِكِ الرَّحـبِ لـم يُنكَـبْ بـأرزاءِ
شـوقُ الفـؤادِ إلـى مغنـاكِ متَّصِـلٌ شـوقَ الريـاضِ إلـى طَـلٍّ وأنـداءِ"

ويخبرنا ابن مليح بأنه "دخل إلى مكة (ذو الحجة ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢م) من موقع كداء، والأصوات تصافح المسامع بالتلبية ... لقد قطعوا ربا مكة ربوة ربوة ... وتبدت لنا الكعبة الغراء في أستارها، وتجلت لنا المليحة بأنوارها، وهي تقول بلسان حالها[34]:

إلـيّ إلـيّ يـا عشـاقَ حُسـني فهـذا الوقـتُ وقـتٌ لا يُضـاهى
فكـأسُ الوصـلِ لـيْ قـدْ دارَ صِـرْفاً وشـمسُ جمالِهـا أبـدتْ سـناها"

وقد يسمي الشاعر فتاة وهمية في غزله كليلى في شعر أبي الوفاء العرضي، ويجعل زيارتها تمام الحج، ولا يخفى أنه قصد بذلك زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول[35]:

تَمـامُ الحَـجِّ أَنْ تَقِـفَ المَطايـا علـى لَيلـى وتُقْرِيَهـا السَّـلاما
فَـإِنْ حَجّـوا ولَـمْ يَقِفـوا بِلَيلـى فَمـا أَلْقـى لِحَجِّهِـمُ تَمامَـا

ويصف الخفاجي لحظة وصوله إلى مكة "ولم أزل أدأب في التسيار، إلى أن نفضت عن منكب المشقة غبار الأسفار فنزلت بجوار بيت الله الحرام، وتطببت بمسك تراب الحطيم والمقام وقلت:

بمكـة لـي غنـاء لـيس يفنـى جـوار الله والبيـت المعظّـم

فلما أفضت من تلك المناسك بتلك البقاع طفت بها بل بالمسرة طواف الوداع. وخرجت من أحب البلاد، والله لا يدعو إلى داره إلا من استخلصه من العباد"[36]

ونرى أحمد بن ناصر ١١٢٩هـ / ١٧١٧م يحمد الله على ما ناله من الطرب والفرح، الذي أنساه العناء والترح، فلا ترى إلا ضاجاً بالذكر، وصارخاً بالدعاء بالسر والجهر فيتغنى قائلًا[37]:

اللهُ ذاكَ البيـــتُ مـــا أَسْـــناهُ ... يـا سَـعْدَ مَـن فيـهِ بَكَـتْ عَيْنـاهُ
ومـــا زال وفـــدُ الله يقصـــد مكـــةً ... إلـى أَنْ بَـدا البَيْـتُ العَتيـقُ ورُكْنـاهُ
فَصـافَحَتِ الأَمْـلاكُ مَـن كـانَ راكِبًـا ... وتَعْتَنِـــقِ الماشـــي إذا مـــا تَلَقّـــاهُ
فَهـذا الّـذي نِلْنـاهُ يَـوْمَ قُـدُومِنا ... وأَوَّلُ ضِـــيقٍ للصُّـــدورِ شَـــرَحْناهُ

وقد برع السيد علي صاحب السلافة في وصف مناسك الحج بالتفصيل في قوله[38]:

يـا حـادِيَ الظُّعْنِ إن جُـزْتَ المواقِيتَـا ... فحَـــيِّ مَـــنْ بِمِنـــىً والْخيْـــفَ حُيِّيتَـــا
يؤُمُّـه الوَفْـدُ مِـن عُـرْبٍ ومـن عجـمٍ ... ويســـبُرون لـــه البِيـــدَ السَّـــبارِيتَا
حتـى أنـاخَ علـى أُمِّ القُـرَى سَـحَراً ... وقـد نضَـا الصـبحُ للظّلْمـاءِ إصْـلِيتَا
فقـام يقْـرَعُ بـابَ العَفْـو مُبـتهِلاً ... لـم يخْـشَ غيـرَ عتـابِ اللهِ تبْكِيتَـا
وطَـاف بالبيـتِ سَـبْعاً وانثنـى عَجِـلاً ... إلـى الصَّـفا حـاذِراً للوقْـتِ تفْوِيتَـا
وراح مُلْتَمِسـاً نَيْـلَ المُنَـى بِمِنـىً ... ولـم يخَـفْ غيـرَ حِـلّ الْخَيـفِ تعْنِيتَـا
وقـام فـي عَرَفـاتٍ عارفـاً ودعَـا ... رَبّـــاً عَوارِفُـــه عَمَّتْـــه تَرْبيتَـــا
وعـاد منهـا مُفِيضـاً وهْـو مُزْدَلِـفٌ ... يرْجُـــو مـــن اللهِ تمكِينـــاً وتثْبِيتَـــا
وبـات للجَمَـراتِ الـرُّقْشِ مُلْتقِطـاً ... كأنـــه لاقِـــطٌ دُرّاً ويَاقوتَـــا
وحين أَصْبَح يـومَ النَّحرِ قـام ضُـحىً ... يُـــوفِي مَناسِـــكَه رَميـــاً وتَسْـــبيتَا
وودَّع البيـتَ يرْجـو العَـوْدَ ثانيـةً ... ولَيْتـه عنـه طـولَ الـدهرِ مـا لِيتَـا
وأَمَّ طَيْبَـة مَثْـوى الطّيّبـين وقـد ... ثَنَـى لـه الشـوقُ نحْـوَ المصـطفى لِيتَـا

وهي طويلة جداً جلّى فيها مراحل الحج بروحانية المستشعر، وحر المشتاق، فلم يدع فيها لذي لب مقالاً، أو أديب محلاً ومقاماً، فهذه المناسك ليست مجرد طقوس، بل رحلة قلبية كاملة مشبعة بالعاطفة الصادقة التي تجمع بين الخشوع والشوق والتضرع؛ إذ يمضي بين مناسك الحج بإخلاص وتفانٍ مستشعرًا عظمة المشهد الروحي.

وللفاسي[39] رحلة حجازية قام بها سنة ١٢١١هـ /١٧٩٧م، وهي تبتدئ هكذا:" خرجنا من الحضرة الفاسيّة بعد صلاة ظهر يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الثانية عام أحد عشر ومئتين ثنتين وألف...، وخرج شيخ الركب صحبة نجل مولانا المنصور بالله ... وصحبة أخيه وجماعة الحجاج ضحى اليوم المذكور" وفيها يقول يرشد صاحبه إلى مناسك الحج[40]:

واقصدْ لبيتِ اللهِ من بابِ السلا مِ تلُحْ لكَ الأنوارُ والأسرارُ
سلّمْ وكبّرْ والثُمِ الحجرَ الذي في ركنهِ الشرقيّ يا زَوَّارُ

وقام الرافعي الأندلسي التطواني برحلة مع الركب المغربي ودخل مكة في رابع ذي الحجة عام ١٠٩٦هـ بعد أن قطع المراحل وذكر فيها انطباعاته في مكة المكرمة، وفي المسجد الحرام، وأمام البيت العتيق، وفي منى والمزدلفة وعرفات سردها المؤلف في منظومة استهلها بقوله:

خرجنا بركبِ الغربِ من مصرَ نؤمُّ الحجازَ والدليلُ بنا يحدو [41]

وإن ليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان وقد تحركت شاعرية العياشي[42] بنظم ميمية في منى[43]:

كُلُّ المُنى بِمِنى إذا ما جِئْتَها تُكْفَى النِّقَمْ
أَكْرِمْ بِهِ مِنْ مَنْزِلٍ فَإِلَيْهِ تَجْتَمِعُ الأُمَمْ
فيهِ تَشابَهَتِ السَّما والأَرْضُ في داجي الظُّلَمْ
هَذا بِأَنْجُمِهِ أَضَا وذاكَ بالسَّمْعِ اضْطَرَمْ
حَيْثُ القِبابُ البِيضُ تَلْ معُ مثلَ نارٍ في عَلَمْ

نلاحظ كيف تغدو هذه الأماكن رموزًا دينية تعكس القيم الروحية والإيمانية.

كما وصف الشعراء تنقلهم بين مكة والمدينة، فها هو ذا محمد بن عبد الله الشهير بكبريت ينشد لنفسه في رحلته مضمنًا[44]:

فارقْـتُ مكـــةَ والأشـــواقُ تجْـــذِبُنِي لهـــا ويمَّمْـــتُ طـــهَ مَعْـــدِنَ الكَـــرَمِ
فهـل دَرَى البَيْـتُ أنِّـي بعـد فُرْقَتِـه مـا سِـــرْتُ مـــن حـــرَمٍ إلاّ إلـى حَـرَمِ

وسبقه إليه العمادي، في قوله[45]:

فارقـتُ طَيْبـةَ مَشـغُوفاً بطَيّبِهـا وجئـتُ مكـةَ فـي وَجْـدٍ وفـي ألَـمِ
فهـل درَى البيـتُ أنّـي بعـدَ رُؤْيتِـه مـا سِـرْتُ مـن حَـرَمٍ إلاّ إلـى حَـرَمِ

7- تعزيز الروابط بين المسلمين في الحج:

يبرز الدور الثقافي والاجتماعي للحج بوصفه ملتقى يجمع المسلمين من مختلف أنحاء العالم، ويحتفي بالروابط الإسلامية والأخوة الدينية، وعبر الشعراء عن هذه العلاقات بين المسلمين كما نرى عند عبد الْجَلِيل الشامي الدِّمَشْقِي في قصيدة مدح بهَا الْأَمِير مُحَمَّد بن فروخ أَمِير ركب الْحَج الشَّامي فِي سنة خمس وَثَلَاثِينَ وَألف مستهلها:

لأيّ كَمـــالٍ مـــن كمالِـــكَ أذْكُـــرُ وأيَّ جميـــلٍ مـــنْ جميلِـــك أشْـــكُرُ
وكـم لـكَ فـي الحُجَّـاجِ آيٌ جميلـةٌ يُقصِّـر عنهـا فـي مُنَـى الطَّـوْلِ قَيْصَـرُ
وكـم لـكَ فـي سـاداتِ مكـةَ مـن يَـدٍ ومـن حسَـناتٍ فضـلُها لـيس يُحْصَـرُ[46]

ومدح مصطفى الترزي الدمشقي[47] شيخَ الإسلام مفتي الدولة العثمانية المولى السيد عبد الله المعروف بالبشمقجي حين قدم دمشق حاجاً بقوله [48]:

شَـمْسُ العُـلا أَشْـرَقَتْ بالشّـامِ فـي شَـرَفٍ مِـنَ الحِجـازِ وأَنْـوارُ الهُـدى لَمَعَـتْ
يـا كَعْبَـةَ المَجْـدِ لَـوْ لَـمْ تَسْـعَ مُبْـتَهِلًا لِكَعْبَـــةِ اللهِ إجْـــلالًا إلَيْـــكَ سَـــعَتْ
الحَـــجُّ بـــاليُمْنِ مَبْـــرُورٌ مَناسِـــكُهُ لِسَـــيِّدٍ فيـــهِ آيـــاتُ الهُـــدى جُمِعَـــتْ
فَالسَّـــعْدُ عَبْـــدٌ خَـــدِيمٌ لِلرِّكـــابِ لَـــهُ بَشـــائِرٌ بِسَـــنَا الإِقْبـــالِ فيـــهِ رَعَـــتْ

والسيد أحمد بن محمد الأنسي" شاعر صنعاء ورد مكة المشرفة فمدح بها سلطانها السيد الشريف زيد بن محسن" بقصيدة طويلة الذيل. فأجازه عليها جائزة سنية الذيل [49]

سَـلُوا آلَ نُعْـمٍ بعـدَنا أيُّهـا السَّـفْرُ أعنـــدهمُ عِلْـــمٌ بمـــا صـــنَعَ الـــدَّهْرُ
تَصَـدَّى لِشَـتِّ الشَّـمْلِ بينـي وبينهـا فمنزلـــيَ البَطْحـــا ومَنْزِلُهـــا القَصْـــرُ
أبـــو حســـنٍ زيـــدُ المَكـــارمِ والتقـــى لـــه دون أمْـــلاكِ الـــورى المجـــدُ والفخـــرُ"

ومدح الشيخ خضر بن عطاء الله الموصلي الشريف حسن سلطان الحرمين ومنها قوله[50]:

بـــدرُ الملـــوكِ أميـــرُ المـــؤمنين أبـــو علـــي الحســـنُ الســـامي بـــهِ شـــامُ
خليفـــةُ اللهِ مـــنْ دارتْ بنُصْـــرَتِهِ ومـــا يشـــاءُ مِـــنَ الأفـــلاكِ أجـــرامُ

إضافة إلى المديح الرسمي نرى المديح الإخواني بين العلماء والشعراء، فقد لقي الخفاجيُّ أحمدَ أفندي بن علي الدمشقي الحنفي المعروف بالحسيبي بمكة جوار الرُّكن والحطيم وكتب إليه وقد توجَّه إلى الطائف، وتخلف هو بمكة[51]:

لـيسَ عنـدِي مـا أرْتَجِـي مـن زَمـانِي غيـــرَ لُقيـــاكَ يـــا أجـــلَّ الأمـــانِي
فعلـــى كـــلِّ حالـــةٍ أنـــتَ قصـــدِي ومُنـــــايَ وأنـــــتَ نـــــورُ عَيـــــانِي

والشيخ غرس الدين الحمصي الخليلي وفد حاجاً إلى مكة المعظمة، ثم انتقل إلى المدينة المنورة، فولي بها خطيباً ومن نظمه في مدح أهل مكة[52]:

عُلَمـــاءُ مَكّـــةَ جـــارُوا الأَمْلاكـــا الطّـــــائِفِينَ العـــــاكِفِينَ هُناكَـــــا
فَتَرَوْحَنُـــوا مِـــنْ قُـــرْبِهِمْ وتَلَطَّفُـــوا وبِلُطْفِهِـــــمُ اسْـــــتَعْبَدُوا النُّسّـــــاكَا

وللشيخ محمد شمس الدين السبرباني[53] قصيدة ضمنها ما وقع للأمير مصطفى بك مولى محمد بك في سنة أربع وتسعين في طريق الحجاز حين ولي أميراً على الحج، وهي بديعة سلسة النظم، حاوية وقائعه التي جرت له مع العربان، وسماها تغريد حمام الأيك، فيما وقع لأمير اللوا مصطفى بك واستهلها بمديحه، ومنها[54]:

إمارةُ حجِّ البيتِ في ســـالفِ العصـــرِ هي المنصـبُ الأعلى وحقُّكَ في مصـرِ
تـولـى أمـيـرُ الـحـجِّ مـفـردُ عصـــرِهِ كريمُ الســـجـايـا ذو المهـابـةِ والفخرِ
وَخِـدْمَـــةُ وَقْـدِ اللَّهِ جَـلَّ جَـلَالُـــهُ هِيَ النِّعْمَـــةُ الْعُظْمَى لِمُغْتَنِمِ الْأَجْرِ

تَنَافَسَ فِيهَا الْأَوَّلُونَ وَعَظَّمُوا ... إِمَارَتَهَا فِي الْخَافِقَيْنِ مَدَى الدَّهْرِ
وَفِي شَهْرِ شَوَّالِ الْمُبَارَكِ زُيِّنَتْ ... لِمَوْكِبِهِ أَطْلَالُ مِصْرَ مِنَ الْفَجْرِ
وَسَلَّمَهُ شَيْخُ الْكِنَانَةِ مُحَمَّلًا ... قَدِ افْتَخَرَتْ مِصْرٌ بِهِ غَايَةَ الْفَخْرِ
وَسَارَ بِهِ كَالْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ ... وَأَتْبَاعُهُ الْأَمْجَادُ كَالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَمَاسَ بِهِ يَهْتَزُّ فِي حُلَلِ الْبَهَا ... عَلَى صَافِنٍ مِثْلِ النَّسِيمِ إِذَا يَسْرِي
وَبَيْنَ يَدَيْهِ الدَّفْتَدَارُ وَحَوْلَهُ ... صَنَاجِقُ مِصْرَ فِي ازْدِهَاءٍ وَفِي فَخْرِ
وَمِنْ خَلْفِهِ الْفُرْسَانُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... أَحَاطَتْ بِهِ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ بِالْبَدْرِ
وَمَا زَالَ يَسْعَى مَعَ سَلَامَةِ رَبِّهِ ... بِمَحْمِلِ طهَ ذِي الْفُتُوحَاتِ وَالنَّصْرِ
وَشَدَّ جَوَادَ الْعَزْمِ وَالْحَزْمِ وَالْقُوَى ... وَعَظَّمَ شَأْنَ الْحَجِّ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ
وَفِي بَرَكَةِ الْحَجِّ الشَّرِيفِ أَتَى بِهَا ... مَحَطَّ رِجَالِ الْوَفْدِ مِنْ سَائِرِ الْقُطْرِ
وَمِنْ بَعْدِ ذَا كُلُّ الصَّنَاجِقِ أَقْبَلَتْ ... تَمِيسُ دَلَالًا فِي ثِيَابِ الْهَوَى الْعُذْرِي

تصور الأبيات مشهد انطلاق أمير الحج في موكب مهيب يليق بجلال المهمة المقدسة ليُبرز الشاعر عظمة منصب إمارة الحج وشرفه، ويفتخر به واصفًا موكبه وكأنه بدرٌ تحيط به الكواكب، بما فيه من هيبة وتنظيم وجمال، ويظهر حب المصريين واعتزازهم بالأمير جامعاً بين الدين والفخر.

8- وداع بيت الله الحرام:

بعد انتهاء مناسك الحج وطواف الوداع تجيش المشاعر وتفيض شعرًا، فاليوسي يصف في رحلته سنة ١١٠١هـ /١٦٩٠ م حجه لبيت الله الحرام، وقصيدته الرائية قالها عند وداع وفد الله لبيت الله، وهي من مئة واثني عشر بيتًا، ومنها قوله[55]:

أَحُجَّاجَ بَيْتِ اللهِ سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ... بِمَا لَمْ يَنَلْهُ رَائِحٌ وَمُبَكِّرُ
وَوَافَيْتُمُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَطُفْتُمُ ... فَمُسَلِّمٌ مِنْكُمْ بِهِ وَمُكَبِّرُ
وَصَلَّيْتُمُ خَلْفَ الْمَقَامِ وَعُذْتُمُ ... لِيَاقُوتَةٍ فِيهَا الْكِتَابُ مُدَخَّرْ

والرافعي الأندلسي التطواني ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ عندما اقترب وقت الرحيل قويت مشاعره ولجأ إلى الشعر ليجد فيه متنفسه فقال[56]:

أَزِفَ الـرحـيـلُ بـمـكـةٍ وحـمـاهـا ودنـا الـتـرحُّـلُ والـغـرامُ تـنـاهـى
كيفَ السلوُّ – سـادتي – عن حضـرةٍ شـــرَّفَ الإلــهُ بـيـتَـهـا واجـتـبـاهـا

تظهر في الأبيات عاطفة شوق ولوعة من ألم الفراق لمكة المكرمة، وتعلق الشاعر الروحي والعاطفي بأقدس البقاع في لحظة وداع مؤلمة تفيض حزنًا وهيبةً ومهابةً.

9- بعد منقلبهم إلى الديار:

تهيجُ مشاعر الحنين والشوق إلى الأماكن المقدسة عند الشعراء بتذكر أيام الحج، ويبلغ الحزن منهم مبلغاً عظيماً؛ فمن ذاق عرف، ومن عرف الجمال اغترف، ومن حُرِمَ بعد المذاق اشتاق واعترف، وهذا حال كل من استمتع بشيء ما حسيًّا كان أو معنويًّا ثم منعه منه مانع، فكيف بمَنْ رأى المسجدَ الحرامَ وطاف بكعبته وعندها أقام، وفي جنباته صلَّى وقام، ونرى هذا واضحاً عند الشيخ أحمد بن محمد علي الجوهري المكي[57]:

تَـــذَكَّرْتُ إِذْ جَـــاءَ الْحَجِـــيجُ بِمَكَّـــةٍ وَنَحْـــنُ وُقُـــوفٌ نَنْظُـــرُ الرَّكْـــبَ مُحْرِمَـــا
فَصِـرْتُ بِـأَرْضِ الْهِنْـدِ فِـي كُـلِّ مَوْسِـمٍ يُجَـــدِّدُ تَـــذْكَارِي لِقَلْبِـــي مَأْتَمَـــا

ويقول في المعنى نفسه[58]:

وَلَـوْ أَنَّ أَرْضَ الْهِنْـدِ فِـي الْحُسْـنِ جَنَّـةٌ وَسُـــكَّانُهَا حُـــورٌ وَأَمْلِكُهَـــا وَحْـــدِي
لَمَـــا قِسْـــتُهَا يَوْمًـــا بِبَطْحَـــاءِ مَكَّـــةٍ وَلَا اخْتَـرْتُ عَـنْ سُـعْدَى بَـدِيلًا هَـوَى هِنْـدِ

وتهيّج الذكرى مشاعر الحنين عند السيد محمد يحيى بن الأمير نظام الدين أحمد الحسيني، فيجسدها شعرًا بقوله[59]:

تَـذَكَّرْتُ إِذْ جَـاءَ الْحَجِـيجُ فأسـبلت جُفُـــونِي دِمَـــاءً وَاسْـــتَجَدَّ بِـــيَ الْوَجْـــدُ
وَأَيَّامَنَـــا بِالْمَشْـــعَرَيْنِ الَّتِـــي مَضَـــتْ وَبِـــالْخِيفِ إِذْ حَـــادِي الرِّكَـــابِ بِنَـــا يَحْـــدُو

ويشتمّ الشاعر ظهير الدين الحلبي نسيم لعلع ونواحيه من أنفاس الحجاج العائدين فيشتاق ويقول في مطلع مدحته النبوية[60]:

نَسِـيمُ الصَّـبَا مِـنْ لَعْلَـعٍ وَنَوَاحِيـهِ سَـرَتْ فَأَزَالَـتْ صَـبْرَنَا مـن صياصـيهِ
إِذَا قَفَـلَ الْحُجَّـاجُ زَادَ وَلُوعُـهُ وَأَرْسَـلَ دَمْعًـا قَانِيًـا مِـنْ مَآقِيـهِ
وَبِالشِّـعْبِ مِـنْ وَادِي النَّقَـا خَيْـرُ جِيـرَةٍ غَـدَتْ بُغْيَتِـي وَاللهِ مِـنْ غَيْـرِ تَمْوِيـهِ
إِذَا ذُكِـرُوا يَرْتَـاحُ قَلْبِـي كَأَنَّمَـا أتـت نحـوه تنقـاد قسـراً أمانيـه

ويصف يوسف النبهاني حنينه إلى مكة، ويشكر لله تعالى حجه وشربه من سلاف زمزم قبل مدحه الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول في موشح[61]:

لَسْـتُ أَنْسـى زَمَنًـا قَـدْ سَـلَفا فِيـكِ يـا مَكَّـةُ بِـالْعَيْشِ الْهَنِـيّ
إِذْ مِـنَ الْمَـرْوَةِ أَسْـعى لِلصَّـفا وَبِـذاتِ الْخـالِ وَجْـدي عَمَّنـي
حِـينَ أَغْـدو طائِفًـا مِـنْ حَوْلِهـا أَتَهـادى مِثْـلَ صَـبٍّ ثَمِـلِ

وله قصائد كثيرة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها قصيدة نظمها عقب زيارة المقام المحمدي مؤلفة من ثمانية وعشرين بيئاً تخلو من الوقوف على الطلل أو ذكر الحبيبة[62]:

هَزَّنـا الشَّـوْقُ لِلْمَقـامِ السَّـنِيّ يـا نَبِيًّـا قَـدْ سـادَ كُـلَّ نَبِـيْ
فَاتَّجَهْنـا إِلَـى الْحِمـى بانْكِسـارِ وَشَـدَدْنا إِلَيْـهِ مَـتْنَ الْمَطِـيْ
وَحَطَطْنـا الرِّحـالَ فـي بـابِ عِـزٍّ وَرَمَيْنـا الْأَثْقـالَ فـي خَيْـرِ فَـيْ
هُـوَ بـابُ الآمـالِ، بَـلْ مُنْتَهـى الْقَصْـدِ وَأَشْـهى الْمُنـى لِقَلْـبِ الشَّـجِيّ

ثم يعرج على ذاته الشريفة ليشرح لنا حقيقة النور المحمدي الذي أشرق في ذاته وما تجلى له من فيض شعوري عارم.

10- تهنئة الحجّاج بعد العودة:

وبعد أن يعود الركب إلى بلده يستقبل الوفود المهنئين، فلما قدم الخفاجي من الحج كتب إليه صديقه عبد الكريم مهنئًا له بعودته سالمًا وقد أدى فرض ربه عليه فقال له: [63]

بُشْـرَى بِمَقْـدَمِ خَيْـرِ مِنْـكَ مَسْـعودِ أَهْـدَى لَنَـا رَوْحَ أُنْـسٍ مِنْـكَ مَعْهُـودِ
فَلْـيَهْنِ مَعْشَـرَ أَحْبَـابٍ وَحُـقَّ لَهُـمْ بِـأَنْ يُهَنَّـوْا بِبُشْـرٍ مِنْـكَ مَشْـهُودِ
كَمَـا يَحِـقُّ هَنَـاءٌ لِلْجَنَـابِ بِمَـا رَوِيـتَ مِـنْ زَمْـزَمَ الْمُشْـفِي لِمَقْصُـودِ
بُشْـراكَ بُشْـراكَ مَـا بُلِّغْـتَ مِـنْ نِعَـمٍ وَمَـا نَعِمْـتَ بِـهِ مِـنْ فَضْـلِ مَعْبُـودِ
مُخَيِّمًـا بِمِنًـى حَيْـثُ الْمُنَـى أَمَـمٌ قَرِيـرَ عَـيْنٍ بِمَوْجُـودٍ وَمَوْعُـودِ
مُتَمِّمًـا بِطَـوَافٍ نُسْـكَ حَجِّـكَ مَقْـ رَوْنًـا بِحُسْـنِ قَبُـولٍ غَيْـرِ مَـرْدُودِ
مُيَمِّمًـا سَـيِّدًا مَـنْ زارَهُ وَجَبَـتْ لَـهُ الشَّـفَاعَةُ حَقًّـا غَيْـرَ مَجْحُـودِ
فَمَـنْ تَطَيَّـبَ مِـنْ دارِيِّ تُرْبَتِـهِ يَشْـتَمُّ مـا عـاشَ عَـرْفَ الْمِسْـكِ وَالْعُـودِ

تغمر الأبيات بهجة اللقاء، وسموّ الروح بعد أداء المناسك، وتفيض بعبارات الثناء والدعاء ما يعكس روحًا صادقة من المحبة والسرور بالمقام؛ إذ يُهنّئ الشاعر صديقه بعودته من الحج سالمًا مبرورًا.

ملامح فنية لشعر مواكب الحج في العصر العثماني:

1- تعدد الأغراض الشعرية:

تجسد شعر مواكب الحج في العصر العثماني في عدد من الموضوعات الشعرية التي سرد الشاعر فيها تجربته الشعورية، وكان على رأسها المديح النبوي، والشوق والحنين إلى مدينته المنورة خاصة وأراضي الحجاز عامة، ومنها التوبة والإقرار بالذنب، والدعاء، ووصف مناسك الحج، وقد فطن النقاد العرب القدامى إلى رمزية الأغراض الشعرية؛ فربما تكون هذه النصوص رحلة حج حقيقية قام بها الشاعر ونقلها شعرًا معبرًا عن أشواقه وقدسية الأماكن في قلبه، وربما تكون رحلة متخيلة من باب تشويق المتلقي الذي يسعى إلى القيام بمناسك الحج والعمرة وزيارة قبر النبي ليستمع لباقي موضوعات الشاعر الذي يشوّقه من أجل أسره في حيز النص.

وقد يكون الشاعر يعاني من اغتراب روحي، فيلجأ إلى عالم مهيب يهرب إليه من نصب الحياة بالتوسل والتبرك بقدسية الأماكن، مما يحدث توازنًا نفسيًا عنده وعند المتلقي،

فيرسم مشاهد الزيارة انطلاقا من إبداء الشوق والحنين، ثم القيام بالرحلة إلى المعالم وما يتعلق بها من مناسك ومعالم وأمكنة.

2- بنية القصيدة:

رأينا في شعر مواكب الحج أن الشعراء نظموه في مقطعات، أو مطولات، أو موشحات، أو منظومات شعرية تأريخية.

حافظ الشعراء غالباً على بنية القصيدة التقليدية؛ إذ إن القصائد تفتح عالمها الشعري بمقدمة غزلية مهذبة تفصح عن شدة تعلق الشاعر بالمكان المقدس والراحلين إليه كما قال النابلسي في مقدمة ديوانه: "وافتتحت كل قصيدة بغزل لطيف إما في ذكر بعض مزايا المدح النبوي الشريف، أو في التشبيب بالأراضي الحجازية والحضرات اليثربية، أو في التشوق إلى جيرة هاتيك البلاد، أو في بث الأشجان والتوجع من ألم البعاد، أو في الطرب بنغمات الحداة وذكر البروق والنسمات المقبلة من هاتيك الجهات، أو في منازل الركب من دمشق إلى طَيِّبَةَ ذاتِ الشرف الزائد على جميع البلاد والهيبة، أو في ذكر الحجيج والنياق السائرة في كل عام، أو في التغزل بالحدائق والزهور وتلاحين الحمام إلى غير ذلك من المهيّجات القلبية".(64)

واهتم الشعراء بحسن الخواتيم إذ تترك خاتمة القصيدة وقعًا على الأسماع؛ لأنها تستأذن للمغادرة والانصراف، فلابد للشاعر أن يختار الصيغة المناسبة، ولعل أشهرها أن تختم بالصلاة والسلام المقترن بذكر الحج كما في قول الشاعر(65):

صـلَّى عليـكَ اللهُ مـا ركـبٌ سـرى نحـــوَ الحجـــازِ وقاصـــداً أرضَ الَّنقـــا

وقول النابلسي(66) :

مـا حـدا الركـبُ نحـو طيبـةَ حـادٍ وتَهَنَّـــــتْ بِجَجِّهَـــــا عَرَفَـــــاتُ

وغالبا ما يذكر الشاعر اسمه أو يشير إلى شيء من صفاته بعدما كان مضمرا ومشارا إليه بالضمير، أو يعرف بسكنه وبمدينته في آخر بيت من القصيدة لتقييد نسبها والإشارة لمبدعها كما في قول عبد الغني النابلسي بعد أن يودع الركب ويعدد مناسك الحج يختم مدحته بقوله(67):

أيُّهَـــا الرَكـــبُ نَحْـــوَ طَيّبَـــة حثـــوا عِيسَـــــكُمْ قَبْـــــلَ يَعْتَـــــرِيكُمْ فَـــــوَاتُ
ولعبـــد الغنـــي انتســـاب إلـــيهِمْ إِذْ لَـــــهُ فِـــــي مـــــديحهم أبيـــــاتُ

وممن ذكر اسمه في ختام قصيدته الشاعر أحمد الحسني المغربي[68]:

وإنّـي غريـبُ الـدارِ أحمـدُ مَـنْ لـهُ غرائـبُ لا تُحصَـى ولا يمكـنُ الضـبطُ

وإلى جانب ذلك نلحظ ظاهرة أخرى على هذه الخاتمة هي تأريخ القصيدة أي: الإشارة إلى السنة التي نظمت فيها بحساب الجمّل لكي يضع الشاعر قصيدته في السياق التاريخي، وهي ظاهرة شاعت بين شعراء العصر وتعد عندهم من أساسيات النظم، وعيًا منهم إلى أهمية المقام التاريخي للخطاب الشعري أو يختمها بالتأريخ الشعري لسنة الحج أو حادثة جرت معه كما ورد في تأريخ النابلسي لوفاة أخيه في طريق الحج قائلاً [69]:

إنْ تـــرُمْ تحســـبِ فالتـــاريخُ جـــا " يوســـفُ النابلســـيْ مـــاتَ شـــهيداً"

3- العاطفة:

عبر هذا الشعر عن العواطف الجياشة التي ضج بها الفؤاد فأطلقها اللسان واهتزت لها الأسماع بروحانية عالية وصدق وجداني، فمنها مشاعر الحزن والحسرة ممن انقطع من الوصول إلى البيت، فيرون فيها انقطاعًا عن الوصول إلى رب البيت، وعبروا عن حبهم وعشقهم للنبي عن طريق الشوق المتأجج في نفوسهم للمس قبره والطواف بروضته والسفر إليها بالروح قبل الجسد، والغبطة والتهنئة لمن من الله عليه بأداء فريضة الحج ممن ودعه أو استقبله، والتعظيم والإجلال للمشاعر المقدسة، ولساكنيها، وللقائمين على تيسير الحج من سلاطين أو أمراء ، والحنين والشوق بعد العودة إلى الديار مسخرين لغة شعرية تدثرت بالمعاني الروحية مما يجعل الشعر سجلاً للحالة النفسية للشاعر، ويجعل القارئ يشعر بالتجربة الروحية الحقيقية.

خاتمة:

إن شعر الحج يحمل مجموعة من الملامح التي تعكس طبيعته الدينية والروحانية والاجتماعية والفنية، فنرى الشعراء يشتركون في كثير من ملامح هذا الموضوع الأدبي الذي ظهر عندهم في مناسبة الحج، ومن خلال الرحلات التي كانوا يحرصون على تدوينها بعد

عودتهم من البقاع المقدسة ليمكنوا مواطنيهم من الاستمتاع بزيارة تلك البقاع بخيالهم ومشاعرهم لأنهم عجزوا أو حالت الظروف بينهم وبين القيام بتلك الرحلة.

إن هذا الشعر يجمع بين التوثيق والخيال، وينقل صورة حية عن رحلة الحجاج، إذ وصف معالم الطريق، والمشاعر المقدسة، ومناسك الحج المرتبطة بها من لحظة الوصول إلى لحظة الوداع ما يجعل الشعر سجلًا حيًا للحج، وتعبيرًا عن التجربة الروحية للشاعر.

غالبًا ما كان هذا الشعر يُزين بأساليب بلاغية كالتشبيهات، والاستعارات، والجناس ليُضفي جمالًا فنيًا على الأبيات ما يعكس الإبداع الفني للشعراء في تلك الحقبة.

الحواشي:

(1) ينظر رافق، عبد الكريم: **قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني**، مجلة دراسات تاريخية العدد 6، دمشق ١٩٨١ م، ص 5- 6.

(2) ينظر العواد، فاطمة علي: **الحياة الثقافية في مكة المكرمة والمدينة المنورة في عهد السلطان عبد العزيز بن محمود الثاني 1277-1293هـ/1861 - 1876م دراسة وثائقية**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الانسانية، (1435هـ/2015م)، ص 31-48.

(3) ينظر التازي، عبد الهادي: **رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، مراجعة عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي فرع موسوعة مكة المكرمة بالمدينة المنورة 1426 هـ / 2005 م، الجزء الأول، ص ٢٤٤، والرافعي الأندلسي التطواني ولد سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، والمعروف عنه أنه كان حياً عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م حسبما يؤخذ من تقاريظ ديوانه.

(4) **القرآن الكريم** / سورة الحج: الآية 27

(5) ينظر البيطار، عبد الرزاق (ت 1335هـ): **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، 1413 هـ - 1993 م. ص 523 وما بعدها، والحنفي اليافي ولد في مدينة يافا سنة ألف ومئتين وحدود الثلاثين.

[6] المحبّي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد (المتوفى: 1111هـ): **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**، ط1، تحقيق عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967، 1/ 366.

[7]ينظر باشا، عمر موسى: **تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني**– دار الفكر – دمشق – سوريا – الطبعة الأولى – 1409 هـ / 1989 م ص٣٧٠، والديوان ص ٥٩– 61 وله مدحتان نبويتان نظمهما وهو في الحج.

[8]ينظر المرادي، محمد خليل بن علي الحسيني، أبو الفضل (المتوفى: 1206هـ): **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم الطبعة: الثالثة، 1408 هـ – 1988 م. 4 / 17، ومحمد بن إبراهيم بن صدر الشام: حبر فقيه أديب بارع ولد بدمشق في سنة خمس وسبعين وألف ونشأ في حجر أخيه علي العمادي المفتي.

[9] المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، 4 / 18

[10]ينظر علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني (ت 1119هـ) **سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، تحقيق** محمود خلف البادي، دار كنان للنشر دمشق، 2009، ص 238، وتاج العارفين بن محمد بن أمين الدين: كان والده مفتي الحنفية بتلك الدار، وله أدب بديع الأسلوب والطرائق.

[11] ابن معصوم: سلافة العصر 238.

[12] النابلسي، عبد الغني: **نفحة القبول في مدح الرسول**، دراسة وتحقيق د. فردوس نور علي حسين، دار الفكر العربي، مصر، 1420هـ/ 1999م ص122.

[13] المصدر نفسه ص 194.

[14] المحبي: نفحة الريحانة 336/1.

[15] البيطار: حلية البشر ص 1231.

[16] المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

[17] نفحة الريحانة 336/1 اليعملات: الإبل السريعة القوية، المناسم: آثار الأقدام، المرسلات: التي أطلقت وأرسلت بلا قيد، الرواسم التي ترسم أثرها على الأرض.

[18] البيطار: حلية البشر ص 1231. عنقاً: نوع من السير وهو الواسع الخطى، فسيحًا: الممدود، الإدلاج: السير ليلا وفي الفقه يقصد به التحرك من مزدلفة إلى منى، التعريس: النوم آخر الليل.

[19] البيطار: حلية البشر ص 1231.

[20] نفحة القبول201، أزمتها: ما تقاد به الناقة.

[21] حجازي، أحمد حامد محمد: **أدب الرحلات في الأدب العربي في مصر في العصر العثماني رحلة الشهاب الخفاجي إلى الحرمين الشريفين (نموذجا)**، مجلة كلية دار العلوم – العدد ١١٤ مارس ٢٠٢٣م، ص 279.

[22]ينظر الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (المتوفى 1069هـ): **ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا**، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، 1386 هـ - 1967 م. ص 203، وفتح الله بن بدر الدين محمود البيلونيّ: الحلبيّ أديب فاضل له طُرف ومُلَح وشِعر قدِم الروم بصحبه الوزير نَصُوح.

[23] المحبّي: نفحة الريحانة 62/1.

[24] قربه الإمام أحمد بن الحسن وهو شاعرٌ كاتب. ينظر نفحة الريحانة 1/ 488

[25] المحبّي: نفحة الريحانة 1/ 488- 489. نقاد: حارس، ثماد: بقية الماء الضحلة في البئر.

[26] المصدر نفسه 490/1.

[27] ينظر المرادي: سلك الدرر 4/ ،247، ويوسف بن إسماعيل النابلسي ولد بدمشق سنة أربع وخمسين بعد الألف وهو شقيق الشاعر عبد الغني.

[28] المرادي: سلك الدرر 4/ 247.

[29]ينظر ابن البيطار: حلية البشر ص 243. وأحمد أفندي الحسيبي: أحد أعيان الشام ولد بدمشق سنة ألف ومئتين وست.

[30] المصدر نفسه ص 243.

[31] النابلسي، عبد الغني: **الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز**، تحقيق رياض مراد، دار المعرفة، دمشق الطبعة الأولى 1410هـ - 1989م، ص 42، القيان المغنيات، والقياني: فعل أمر من ألقى بتسهيل الهمزة، شاني: مبغضي.

[32] المقري ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م أحمد بن محمد بن أحمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص ٣٩.

[33] رحلة الرحلات ص ١٨٨. الوخد: الحدّة في المشي، الإرقال: السرعة مع الرشاقة.

[34] ينظر رحلة الرحلات ص 194، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي السراج الملقب بابن مليح ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م له رحلة حجازية و (أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الاعاجم والأعارب) أيام السلطان الوليد بن زيدان بن المنصور أحمد الذهبي الذي بعث بهدية فريدة للحرمين بواسطة القائد جوهر وقصد تلك البقاع عن طريق الصحراء، وعبر واحة سيوة إلى مصر.

[35] بيرة جكلي، زينب: **الحركة الشعرية في حلب في القرن الحادي عشر الهجري**، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، إشراف أ. د ظهور أحمد أزهر، جامعة بنجاب_ لاهور 1414 هـ _ 1994 م.، ص 69.

[36] حجازي، أحمد حامد محمد: أدب الرحلات في الأدب العربي في مصر في العصر العثماني رحلة الخفاجي إلى الحرمين الشريفين نموذجا، ص 278.

[37] التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات ص 256.

[38] المحبي: نفحة الريحانة 2/ 59 – 60. السباريتا: كلمة لاتينية معناها الأشباح، الإصليت: اللهب، تبكيت: لوم، ما ليتا: ما حبس وما صرف، ليتا الثانية: صفحة العنق.

[39] ينظر رحلة الرحلات ص ٤٠٩، وأبو العباس: هو أحمد بن محمد بن احمد بن محمد بن الشيخ عبد القادر الفاسي الفهري المتوفى سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م.

[40] التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات ص ٤١١.

[41] المرجع نفسه ص ٢٤٤.

[42] ينظر المرجع نفسه ص 206، والعياشي: هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠هـ /١٦٧٩م، وهو من أعيان علماء المغرب.

(43) التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات ص 206.

[44] المحبي: نفحة الريحانة 2/ 113.

(45) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

[46] ينظر المحبّيّ (محمد أمين بن فضل الله، ت 1111 هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، د. ت. 2/ 304، ونفحة الريحانة 54/2 – 55.

[47] ينظر المرادي: سلك الدرر 166/4، ومصطفى الترزي الدمشقي: هو ابن أحمد باشا كان والده أمير الأمراء وتولى إمارة اللجون وكان باشجاويش بدمشق وتوفي في سنة تسع وثمانين وألف.

[48] المرادي: سلك الدرر 4/ 175.

[49] ابن معصوم: سلافة العصر، ص272، والمحبّي: خلاصة الأثر، 2/ 182، ونفحةُ الريحانة 495/1، وله كافيّة في مدح الشريف المذكور ينظر نفحة الريحانة 499/1.

[50] ابن معصوم: سلافة العصر ص 222.

[51] المحبّي: نفحة الريحانة 124/1.

[52] المصدر نفسه ص 232.

[53] ابن البيطار: حلية البشر، ص 1420، ومحمد شمس الدين السبرباني: هو المحمدي الشافعي المصري نسبة إلى سبرباي قرية بالغربية قرب طنطا وبها ولد، ونسبه يرجع إلى محمد بن الحنفية، توفي سنة عشر ومئتين وألف للهجرة.

[54] المصدر نفسه، ص 1420. الدفتردار: بمعنى وزير المالية، صناجق: ألوية.

[55] التازي، عبد الهادي: رحلة الرحلات ص 237، والعلم هو أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد البدرساني اليوسي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ .

[56] المرجع نفسه ص ٢٤٩.

[57] المحبّي: نفحة الريحانة 50/2.

[58] ابن معصوم الحسيني: سلافة العصر ص 121، والمحبّي: خلاصة الأثر 1/ 331، والمحبّي: نفحة الريحانة 52/2

[59] ابن معصوم: سلافة العصر 18، والمحبّي: نفحة الريحانة 62/2، وخلاصة الأثر 3/ 331.

[60] ينظر الخلاصة ٢/٢٦٠ والريحانة ١/250، وينظر بيرة جكلي، زينب: الحركة الشعرية في حلب في القرن الحادي عشر الهجري، ص68، وظهير الدين: شاعر حلبي تردد إلى إستانبول مرارا، وتوفي في الأناضول.

[61] ينظر كنج خاتلو، فاطمة، **مضامين الموشحات النبوية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة**، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد التاسع والتسعون، ص ٣٠١.

[62] درنيفة، محمد أحمد: **معجم أعلام شعراء المدح النبوي**، قدم له وضبط أشعاره الدكتور ياسين الأيوبي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 2003. ص ٢٨٠.

[63] نفحة الريحانة 175/1، و367.

[64] النابلسي، عبد الغني: نفحة القبول في مدح الرسول، ص8.

[65] المرادي: سلك الدرر 4 / 17.

[66] النابلسي: نفحة القبول ص 34، وينظر المصدر نفسه ص 296 – 297.

[67] المصدر السابق نفسه، وينظر ص8 من البحث.

[68] ابن معصوم: سلافة العصر 331.

[69] المرادي: سلك الدرر 4/ 246، وبحساب الجمل تاريخ وفاته 1105 هـ، وص 13من البحث.